Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وتأتى الثنائية الأخيرة مفاجأة مدهشة ثانية، لأنها تشير إلى عالم يبدو فى الظاهر أنه لم يرد ذكره من قبل فى التَّعداد الأول، عالم القِرْطاس والقلم، عالم الكتابة والشعر ؛ أىْ عالم الكلمة. وهو يعبر عنه بزوج من الكلمات المتعايشة فى أسرة الشعر، والمتناغمة – عن طريق التشاكُل الضدىِّ – مع أسرة الحرب السابقة، فالقِرْطاس يقابل صفحة السيف، والقلم يحكى سن الرمح، وكلاهما أداة مكملة للآخر ينتجان فعل الشعر. هنا تصدمنا المقابلة ؛ فالشعر تَواصُل حميم وفيض على الآخرين، الشعر كلام مجنح لا يتم إلا باحتضان الآخر له، واستجابته لندائه، فى حين أن القتل نفىٌ لهذا الآخر، لابد لنا من البحث عن تناسب عميق يكمن تحت هذه البنية السطحية المتفاوتة ؛ ولا سبيل لذلك سوى رد الشعر إلى الحرب، فهو لا يقوم على الوصال المتكافئ، ولا يعتمد على الاستثمار الجماليِّ للتقارب الأليف، بل يعتمد على الإعجاز والإبهار والاستلاب. الشعر هكذا أداة للسيطرة بحيث تصبح الكلمة نافذة فى العظم مثل السيف وقاتلة لإرادة الآخرين، لا سبيل إلى أن يمارس متلقِّى الشعر – فى وعى المتنبى – حريته فى القبول والرفض، أو حقَّه فى الاختلاف، ليس له هذا الحق أصلاً أمام جبروت سلطة الكلمة. وهنا نكتشف شيئاً آخر، عن طريق التشاكُل المتوازى فى الموقع مع العناصر الأولى، فالشعر يقابل الليل كما أن الحرب تقابل الخيل، فلم يكن ليل صاحبنا إذن ليلَ العاشق المحب المحبوب، وإنما ليلُ المجدِّ فى اقتناص القوافى ونَصْبِ شراك الكلمات القاتلة . لقد أحسنا به الظن عندما حسبنا أنه قد يلمِّحُ بالليل إلى المرأة، إنها فى الواقع مستبعدة من مملكته البدوية، إنها مملوكة له وليست طرفاً محاوراً يدخل معه فى علاقة الندِّ للندِّ عن طريق التواصل المتكافئ الجميل.

فإذا لم نشعر بالارتياح تجاه هذا الاحتمال – فلدينا بديل آخر قد ألمحنا إليه من قبل ؛ هل يقابل الشعر فى الجملة الثانية البيداء المطلقة فى الجملة الأولى، وهو على شاكلتها وابن بجدتها؟ عندئذ يظل الليل مستربلاً بغطائه، مغلقاً على أسراره.

لكن الغريب أن هاتين الثنائيتين المكونتين للشطر الثانى تصبان فى نفس الفعل السابق وتقومان بنفس الدور الذى يتمحور حول ذات الشعر، فنحن إزاء سبعة فواعل لفعل واحد يشبع إحساس الشاعر بنفسه وتفرده، ويُلغى – أو يكاد – وجودَ الآخرين لديه، وهذا هو الحس البدوىُّ المضاد للاجتماع والمناهض للعمران، على حد عبارة المؤرخ المغربىِّ العظيم.